بسم الله الرحمن الرحيم

# ٩٩ ـ سورة الزلزلة

قال ابن كثير : مكية . ورجّح السيوطيّ أنها مدنية . وآيها ثمان . روى الترمذيّ[1] عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ ( إِذَا زُلْزِلَتِ ) تعدل نصف القرآن . و ( قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ) تعدل ثلث القرآن . و ( قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ) تعدل ربع القرآن . وسيأتى سر ذلك فى تفسير سورة الكافرين والإخلاص إن شاء الله تعالى .

(١) أخرجه فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١٠ ـ باب ما جاء فى ( إِذَا زُلْزِلَتِ ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا )

[٢] ( وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا )

« إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا » أى أصابها ذلك الزلزال الشديد والاهتزاز الرهيب . فالإضافة للتفخيم أو الاختصاص، بمعنى الزلزال المخصوص بها. وهى الرجة التى لا غاية وراءها. والأقرب الأول ، لآية[1] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ) وقرئ بفتح الزاى . وقد قيل هما مصدران . وقيل المفتوح اسم والمكسور مصدر . وهو المشهور « وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » أى قذفت ما فى باطنها من كنوز ودفائن وأموات وغير ذلك ، لشدة الزلزلة وتشقق ظهرها . كقوله[2] ( وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ) والأثقال جمع ( ثقل ) بفتحتين . وهو متاع المسافر وكل نفيس مصون . وهذا على الاستعارة . ويجوز أن يكون بكسر فسكون بمعنى حمل البطن ، على التشبيه أيضاً . لأن الحمل يسمى ثقلا كما فى قوله تعالى[3] ( فَلَمَّآ أَثْقَلَت ) قاله الشريف المرتضى فى ( الدرر ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا )

[٤] ( يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا )

[٥] ( بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا )

(١) [ ٢٢ / الحج / ١ ] .
(٢) [ ٨٤ / الانشقاق / ٣و٤ ] .
(٣) [ ٧ / الأعراف / ١٨٩ ] .

[٦] ( يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَـٰلَهُمْ )

[٧] ( فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ )

[٨] ( وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ )

« وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا » أى قال من يكون من الإنسان شاهداً لهذا الزلزال ، الذى فجأه ودهشه ، ولم يعهد مثله : مالهذه الأرض رجّت هذه الرجة الهائلة ، وبعثر ما فيها من الأثقال المدفونة « يَوْمَئِذٍ » بدل من ( إذا ) أى فى ذلك الوقت « تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » أى تبين الأرض بلسان حالها ، ما لأجله زلزالها وإخراج أثقالها . فتدل دلالة ظاهرة على ذلك . وهو الإيذان بفناء النشأة الأولى وظهور نشأة أخرى . فالتحديث استعارة أو مجاز مرسل مطلق الدلالة .

قال أبو مسلم : أى يومئذ يتبين لكل أحد جزاء عمله . فكأنها حدثت بذلك . كقولك ( الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة ) فكذا انتقاض الأرض بسبب الزلزلة، تحدث أن الدنيا قد انقضت ، وأن الآخرة قد أقبلت .

« بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا » الباء سببية متعلق بـ(تحدث) أى تحدث بسبب إيحاء ربك لها ، وأمره إياها بالتحديث . والإيحاء استعارة أو مجاز مرسل لإرادة لازمه . وهو إحداث ماتدل به على خرابها .

وقال القاشانىّ : أى أشار إليها وأمرها بالاضطراب والخراب وإخراج الأثقال . يعنى الأمر التكوينىّ . وهو تعلق القدرة الإلهية بما هو أثر لها « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا » أى ينصرفون عن مراقدهم إلى مواطن حسابهم وجزائهم، متفرقين سعداء وأشقياء « لِّيُرَوْا أَعْمَـٰلَهُمْ » أى ليريهم الله جزاء أعمالهم «فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ» أى فمن عمل فى الدنيا وزن ذرة من خير ، يرى ثوابه هنالك . والذرة النملة الصغيرة وهى مثل فى الصغر . وقيل الذر هو الهباء الذى يرى فى ضوء الشمس إذا دخلت من نافذة « وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ » أى ومن كان عمل فى الدنيا وزن ذرة من شر ، يرى جزاءه ثمة .

## تنبيهات :

الأول ـ دل لفظ ( من ) على شمول الجزاء بقسميه ، للمؤمن وغيره .

قال الإمام : أى من يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره، فإنه يراه ويجد جزاءَهُ . لافرق فى ذلك بين المؤمن والكافر . غاية الأمر أن حسنات الكفار الجاحدين لاتصل بهم إلى أن تخلصهم من عذاب الكفر، فهم به خالدون فى الشقاء. والآيات التى تنطق بحبوط أعمال الكفار، وأنها لاتنفعهم ، معناها هو ماذكرنا. أى أن عملًا من أعمالهم لاينجيهم من عذاب الكفر، وإن خفف عنهم بعض العذاب الذى كان يرتقبهم ، على بقية السيئات الأخرى ، أما عذاب الكفر نفسه فلا يخفف عنهم منه شيء . كيف لا ، والله جل شأنه يقول[1] ( وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا، وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا، وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ) فقوله ( فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ) أصرح قول فى أن الكافر والمؤمن فى ذلك سواء . وإن كلًّا يوفى يوم القيامة جزاءه . وقد ورد أن حاتمًا يخفف عنه لكرمه . وأن أبا لهب يخفف عنه لسروره بولادة النبيّ ﷺ . وما نقله بعضهم من الإجماع على أن الكافر لاتنفعه فى الآخرة حسنة ولا يخفف عنه عذاب سيئةٍ ما ، لا أصل له . فقد قال بما قلناه كثير من أئمة السلف رضى الله عنهم . على أن كلمة (الإجماع) كثيراً مايتخذها الجهلاء السفهاء آلة لقتل روح الدين ، وحجرا يلقمونه أفواه المتكلمين . وهم لايعرفون للإجماع الذى تقوم به الحجة معنى ، فبئس مايصنعون . انتهى .

وقد سبقه الشهاب فى ( حواشيه ) على القاضى ، حيث ناقش صاحب المقاصد فى دعواه الإجماع على إحباط عمل الكفرة . وعبارته : كيف يدعى الإجماع على الإحباط بالكلية ، وهو مخالف لما صرح به فى الآية ؟ والذى يلوح للخاطر ، بعد استكشاف سرائر الدفاتر ، أن الكفار يعذبون على الكفر بحسب مراتبه . فليس عذاب أبى طالب كعذاب أبى جهل. ولا

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٤٧ ] .

عذاب المعطلة كعذاب أهل الكتاب ، كما تقتضيه الحكمة والعدل الإلهىّ . انتهى .

الثانى ـ قال فى ( الإكليل ) : فى هاتين الآيتين ، الترغيب فى قليل الخير وكثيره . والتحذير من قليل الشر وكثيره . أخرج عبد الرزاق عن ابن مسعود قال : هذه الآية أحكم آية فى القرآن . وفى لفظ ( أجمع ) .

وسمّى[1] رسول الله ﷺ هذه الآية الجامعة الفاذة ، حين سئل عن زكاة الحمير فقال : ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ( فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ) . وروى الإمام أحمد[2] عن صعصعة بن معاوية . عم الفرزدق ، أنه أتى النبىّ ﷺ فقرأ عليه ( فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ) إلخ . قال : حسبى . لا أبالى أن لا أسمع غيرها . ورواه النسائىّ فى تفسيره .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩٩ ـ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ، ١ ـ باب قوله فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، حديث رقم ١١٨٥ ، عن أبى هريرة .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٩ من الجزء الخامس من المسند .